المقتطف

الجزء العاشر من السنة التاسعة عشرة

اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٨٩٥ الموافق ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣

مقام الاستاذ هكسلي

لما ذكرنا ترجمة الاستاذ هكسلي في الجزء الثامن من المقتطف لم نتمكن من نشر صورته وهو في أُخريات ايامه ليطّلع عليها جمهور القراء فنشرناها الآن الاّ ان هذا الرسم الظاهري لا يُقابَل بالرسم المعنوي الذي تمكّن من نفوس قرّاء سيرته ومطالعي خطبه ومقالاته فان الرجل كان نادرة في قوّة الحجة وإخلاص النيّة والشهادة للحق حسبما يعتقده لا يخاف فيه لومة لائم ولا يراعي مقام كبير ولا يحتقر ضعة صغير . ويظهر ذلك باجلى بيان من

حادثتين جرتا لهُ في مجمع ترقية العلوم البريطاني سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٩٤ وقد اشار اليهما العلامة الاستاذ مخائيل فوستر الفسيولوجي الشهير بعد وفاة هكسلي بأيام . قال ما مؤداهُ

" غصَّ نادي المجمع البريطاني في اكسفرد سنة ١٨٦٠ وقام احد الاساقفة العلماء ونددَ بالمذهب الداروني تنديدًا اختلب الالباب ببلاغتهِ وبما صحبهُ من سلطة المتكلم على عقول سامعيهِ وتكرُّههم من مذهب حسبوهُ الضربة القاضية على الدين والفضيلة والآداب. فصفَّق لهُ الحضور مرارًا ونادوا باصوات البشر والحبور ولوَّحت لهُ النساء الشريفات بمناديلهنَّ علامة السرور والغلبة . ولما سكن الجاش واستولت السكينة على الجمع نهض هكسلي ولم يكن اسمهُ معروفًا الَّا لدى حلقة خاصَّة من العلماء الاحداث فصفقوا لهُ ورحبوا بهِ ولكن كاد صوتهم لا يسمع في ذلك المحفل العظيم فجعل يفنِّد حجج الخطيب حجةً حجةً وقابل الجمع اقوالهُ اولاً بالاستنكار ثم بالقبول ثم بالرضى التام . ولم يطل الكلام حتى اختلب الالباب بحسن بيانهِ وقوَّة حجتهِ فجعل الجمع يصفق لهُ مرة بعد أُخرى ولم يتم كلامهُ حتى وقع في نفوسهم موقعًا عظيمًا واعجبوا بهِ كما اعجبوا بالخطيب الاول وقال خاصتهم لقد قام بيننا عالم كبير سيكون لهُ اعظم شأن في البلاد الانكليزيَّة

وفي الاجتماع الاخير الذي حدث في العام الماضي ندَّد اللورد سلسبري رئيس المجمع بالمذهب الداروني فلما قام هكسلي ليشكرهُ على جاري العادة انبعثت اصوات البشر والترحيب من الجمع المزدحم حتى صمَّت الآذان وكأنَّ لسان حالهم يقول هذا هو الخادم الامين الذي خدم العلم اكثر من خمسين عامًا خدمة صادقة ناظرًا الى الحق بعزم شديد ومرادنا ان يعلم ان اتعابهُ لم تذهب سدًى". وكان لورد كلفن زعيم علماء الطبيعة قد قام قبلهُ ليشكر اللورد سلسبري وقال ان الخطبة الَّتي اصغوا اليها برغبة وتشوُّق قد دخلت ميدانًا فيهِ سعة للعلم والفكر . فاقتيدت بها افكارهم من العصور الوسطى الى اواسط القرن الحاضر فظهر لهم ان مدارس اكسفرد بقيت في طليعة علماء العصر . وقد سمعوا عن اعمال دارون العظيمة الَّتي جعلت الناس يفتكرون ويجاهرون بافكارهم كما يشاؤون . وان اساليب علم الحياة الَّتي لم يضعها دارون بل وسَّعها كثيرًا ورقَّاها ثبت انها نافعة جدًّا للعلم وللدين والعقل . ويظهر من خطبة الخطيب من اولها الى آخرها انهُ من طلبة العلم ومن رجالهِ الذين لا يحصرون انفسهم ضمن دائرة ضيقة من دوائرهِ بل يتسمون فيهِ ويشتغلون بكل فرع من فروعهِ . وقد وقف اكثر قواهُ لعلم السياسة ولو جرى على مقتضى طبعهِ لفضَّل ان يقفها للمباحث الكيماويَّة او نحوها من المباحث العلمية . ثم استدعى وجوب الشكر لهُ

على خطبتهِ المفيدة. فلمَّا قام الاستاذ هكسلي يؤيد طلب الشكر على جاري عادتهم (وهم يختارون لذلك خيرة رجالهم) قال

انهُ كُلِّف بهذا العمل الشريف وهو تأييد الشكر ولكنهُ يأسف لان صحتهُ منعتهُ عن حضور هذا الاجتماع السنوي منذ سنين عديدة فنسي الرسوم المتَّبعة في مثل ذلك واضطر ان يراجع في ذهنهِ ما كان يجري في المجمع في الايام السالفة منذ اربعين عاماً فرأى انهم كانوا يقتصرون على الشكر والمدح بعد تلاوة خطبة الرئاسة ويتركون الجدال والمناظرة الى الاجتماعات الاخرى الَّتي تجتمعها اقسام المجمع. ثم قال ان خطبة الرئيس جزيلة الفائدة وحريَّة ان يُنظر فيها في قسم البيولوجيا. وان فيها كثيراً مما يعجب بهِ جِدًّا ويوافق عليهِ اتم الموافقة. واستطرد الى مسألة النشوء ومذهب دارون فقال انهُ جرت فيهما مناظرة عنيفة بين بعض العلماء منذ اربع وثلاثين سنة وهي الَّتي اشار الرئيس اليها فقال انصار دارون ان انواع النبات والحيوان غير ثابتة على حال واحدة بل تتغير دواماً وقد تولَّد بعضها من بعض وتولَّدت كلها من اصول قليلة العدد فقال الناس عنهم انهم يقصدون نقويض اسس الدين والصلاح وان النسبة بينهم وبين الحيوانات الدنيا قريبة جدًّا ولذلك يحسبون ان اصل الانسان منها. الاَّ ان آراء الناس تغيرت كثيراً في هذه الاربع والثلاثين سنة الَّتي مرَّت لانهُ رأى الخطيب يصرِّح في خطبتهِ جهاراً ان القول بثبوت الانواع على حالها قد نُفي نفياً مطلقاً وان قليلين يشكون الآن في ان بعض افراد النوع الواحد من انواع الحيوان قد تختلف بعضها عن بعض اكثر مما يختلف نوع عن آخر من انواع الحيوان كلها. فهذه القضايا الَّتي يقول بها اصحاب النشوء هي اساس مذهبهم وعندهم ان مذهب دارون ومذهب سبنسر ومذهب هكسل ومذهب وسمن ليست النشوء عينهُ بل هي مذاهب ذهب اليها اصحابها تفسيراً لكيفيَّة حدوث النشوء فهي مبنيَّة على النشوء ولكنها ليست اياهُ. اما النشوء فقد ثبت على مقاومة خصومهِ كل هذه السنين وقد ختم اللورد سلسبري على صحتهِ تلك الليلة بختام الرئاسة. ثم رحَّب باللورد سلسبري لاعتناقهِ مذهب النشوء جديدًا وشكرهُ بالاصالة عن نفسهِ وبالنيابة عن نصراء دارون الذين لم يزالوا في قيد الحياة على ما اثنى بهِ على ذلك الرجل العظيم. فشكرهُ اللورد سلسبري ووافقهُ على اقوالهِ

وقد اطلعنا على كثير من الجرائد العلميَّة فوجدناها تؤبنهُ احسن تأبين وتعجب ببداهتهِ وقوَّة حجتهِ وغزارة علمهِ وحسن طويتهِ ومقاومتهِ خصوم العلم الذين كانوا يبغون ان يبقى الناس مكتفين بالمسلمات والعقائد الَّتي لا دليل على صحتها

ولما اجتمع مجمع ترقية العلوم البريطاني في الحادي عشر من هذا الشهر (سبتمبر) كان اول ما فاه به رئيسهُ السر دغلس غلتون انهُ ذكر فقدهم للاستاذ هكسلي وخسارتهم ٱلَّتي لا تعوَّض قال

" ارى من الواجب عليَّ ان اشير الى الخسارة العظيمة ٱلَّتي خسرها العلم حديثاً بموت الاستاذ هكسلي . ولا حاجة بي ان اشير الى مناقبهِ الكثيرة لا سيما وان كثيرين من الحضور يعرفونهُ شخصيًّا . واما ما لهُ من الايادي البيضاء على مجمعنا بما فعلهُ في ترقية العلوم فما لا يصحُّ السكوت عنهُ . فقد كان من اقدر الناس على نزع الحواجز ٱلَّتي اقامها اهل التقليد في سبيل العلم في حداثة هذا المجمع وكسر القيود ٱلَّتي قيَّدت العقول بها في بعض فروع العلم . وقد امتاز بذكاء العقل ومضاء العزيمة وبلاغة الانشاء كما امتاز بمعارفهِ البيولوجيَّة . وبلاغتهُ سهَّلت عليهِ ايضاح اغمض المسائل العلميَّة . وكان في الخطابة فصيحاً منسجم العبارة قوي الحجة يكثر من الامثال والنكت ٱلَّتي تزيد معانيهُ ايضاحاً . وبمضاء عزيمتهِ وبلاغة حجتهِ انتصر مذهب التشوء وحقَّ لنا ان نبحث في مسائل الدين والعلم بلا خوف ولا تزلُّف "

هذا ومن يطالع ما نشرناهُ في فصول سابقة موضوعها جهاد العلماء يعلم ان الحريَّة العلميَّة ٱلَّتي يجاهر بها علماء الطبيعة وعلماء الدين الان في مدارس اوربا ومجامعها وكنائسها لم تكن شيئاً مذكورًا منذ خمسين او ستين عاماً وان الفضل فيها كلها لعلماء هذا العصر مثل هكسلي وتندل وسبنسر وريتان ولنرمان ونحوهم من العلماء الاعلام الذين كسروا قيود التقاليد القديمة واخرجوا العقل من ربقة الجهل الى نور العلم والحريَّة

ولا ننكر ان بعض هؤلاء العلماء غالوا في اطلاق الحريَّة وتوغلوا في الظنون والاوهام لانهم لم يخرجوا عن كونهم بشرًا عرضة للخطإ لكنَّ اطلاق الحريَّة للعقل خير من تقييدهِ على كل حال واذا تناضلت العقول وتساجلت فقلما تتَّفق على ضلال

غرض العلماء الاعظم

اذا كان علمُ المرء ليس بنافعٍ ولا دافع فالخسرُ للعلماء

جرت مناظرة في هذه الاثناء بين عالم اميركي اسمهُ كلارك ومحرِّر جريدة العلم العام الاميركيَّة في غرض العلماء جرَّتها اليها خطبة اللورد سلسبري في مجامع العلم ٱلَّتي